

جامع الإمام الأعظم «أبو حنيفة النعمان»



تركي محمد النصر

بغداد.. المدينة المدوّرة، سرّة الدنيا، وجنة الأرض، ومدينة السلام، وقبة الإسلام، ومجمع الرافدين، وغرّة البلاد، وعين العراق، ودار الخلافة، ومجمع المحاسن والطيبات، ومعدن الطرائف واللطائف. بناها أبو جعفر المنصور سنة: (١٤٥هـ) بشكل دائري، وجعل داره ومسجده في وسطها، وانتقلت إليها الدولة العباسية سنة: (١٤٩هـ). قال الأديب عبد الواحد بن نصر بن محمد، المعروف بأبي الفرج البغواء (ت: ٣٩٨) في مدح بغداد: «إن هواءها أغذى من كل هواء، وماءها أعذب من كل ماء، وإن نسيمها أرق من كل نسيم، وهي بمنزلة المركز من الدائرة، ولم تزل بغداد موطن الأكاسرة في سالف الأزمان، ومنزل الخلفاء في دولة الإسلام».

عن جلال بناء قصور الخلافة العباسية، ولقد سقطت المنارة وهدم الجامع عام: (٦٧٠هـ)، وأعيد بناؤهما في عام: (٦٧٨هـ).

ثانيها جامع السلطان، وهو خارج البلد وتتصل به قصور تنسب للسلطان. **وثالثها** جامع الرصافة، وبينه وبين جامع السلطان نحو الميل.

وقال رحمه الله: «يقرب الرصافة قبر الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه، وعليه قبة عظيمة وزاوية فيها الطعام للوارد والصادر... وبالقرب منها قبر الإمام أبي عبدالله أحمد بن حنبل رضي الله عنه ولا قبة عليه... وأكثرهم على مذهبه، وببغداد كثير من قبور الصالحين والعلماء رضي الله عنهم».

جامع الإمام الأعظم

سمي الجامع بهذا الاسم نسبة للإمام العلامة الفقيه الحجة «أبو حنيفة» النعمان بن ثابت الكوفي، إمام الحنفية، الفقيه المجتهد المحقق، أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة، غلبت كنية «أبو حنيفة» على اسمه حتى كان أشهر من نار على علم. ولد سنة: (٨٠هـ)، في الكوفة ونشأ فيها، وأراده الخليفة المنصور العباسي على القضاء ببغداد فأبى، فحلف عليه ليفعلن، فحلف أبو حنيفة أنه لا يفعل،

وفي آخره المدرسة المستنصرية، ونسبتها إلى أمير المؤمنين المستنصر بالله أبي جعفر ابن أمير المؤمنين الظاهر ابن أمير المؤمنين الناصر، وبها المذاهب الأربعة... وبهذه الجهة الشرقية من المساجد التي تقام فيها الجمعة ثلاثة:

أحدها جامع الخليفة (جامع الخلفاء اليوم)، وهو المتصل بقصور الخلفاء ودورهم، وهو جامع كبير في سقايات ومطاهر مثيرة للوضوء وللغسل، ولقيت بهذا المسجد الشيخ الإمام العالم الصالح مسند العراق سراج الدين أبا حفص عمر بن علي بن عمر القزويني، وسمعت عليه فيه جميع مسند الإمام الدارمي.

ومنارة جامع الخليفة، من المآذن التاريخية والتميزة بعمارتها، وهي الأثر المعماري الوحيد الباقي من دار الخلافة العباسية ومساجدها، وقد بنيت هذه المنارة قبل أكثر من سبعة قرون، وهي من الأجر فقط، وتبدو النقوش المحيطة بالسطح الدائري بأشكالها المعينية البسيطة، كما لو كانت قد صففت لتبرز من خلال الظلال المتباينة في الخط الآجري. وكانت تعتبر أعلى منارة يمكن رؤية بغداد من على مآذنتها، وكان ارتفاعها خمسة وثلاثين متراً، وهي تعبر

قال ابن بطوطة (ت: ٧٧٩هـ) في تحفة النظار: «بغداد... مدينة دار السلام، وحضرة الإسلام، ذات القدر الشريف، والفضل المنيف، مثوى الخلفاء، ومقر العلماء».

وقال فيها ياقوت الحموي (ت: ٦٢٦هـ) في معجمه: «بغداد سيّدة الدنيا، وأم البلاد».

ومن مشهور الأقاويل فيها قول الشافعي (ت: ٢٠٤هـ) لتلميذه يونس بن عبد الأعلى (ت: ٢٦٤هـ): يا يونس: أدخلت بغداد؟

قال: لا. قال: يا يونس، ما رأيت الدنيا، ولا رأيت الناس! وقال أبو الحسن ابن زريق البغدادي (٤٢٠هـ):

سافرت أبغي لبغداد وساكنها مثلاً، قد اخترت شيئاً دونه اليأس هيئات! بغداد الدنيا بأجمعها عندي، وسكان بغداد هم الناس

ذكر الجانب الشرقي من بغداد

قال ابن بطوطة في تحفة النظار: وهذه الجهة الشرقية من بغداد حافلة الأسواق عظيمة الترتيب... وفي وسط هذا السوق المدرسة النظامية العجيبة التي صارت الأمثال تضرب بحسنها،

♦ إمام وخطيب في وزارة الأوقاف الكويتية

ومدرسته في بغداد لكانت المنطقة اندثرت وزالت بعد سقوط بغداد ودخول هولاكو، كما اندثرت مناطق عديدة منها.

وأثناء وجود الصفويين في بغداد تم ولمرات عدة هدم مشهد الإمام أبي حنيفة وتحطيم مدرسته، وهما الآن من أهم الآثار والمساجد التاريخية في عالم الإسلام، بسبب ما للإمام وتلاميذه ومذهبه من فضل كبير على جميع المسلمين، هذا وقد تعرض الجامع وما حوله من آثار ومرفقات للتغيير أكثر من مرة عما كان عليه أولاً وذلك لما قام به الكثير من الملوك والأمراء ونظار الوقف، من إحداث ترميمات أو تجديد بناء أو إضافة مرافق أو استحداث بدائع.

وبعد الاهتمام البالغ الذي شهده المسجد من قبل الملك محمد بن منصور الخوارزمي كما مر سابقاً كان العثمانيون أكثر الناس اهتماماً به، فعندما طرد السلطان سليمان القانوني الفرس الذين هدموا قبر الإمام رحمه الله من بغداد سنة: (٩٤١هـ)، بأمر بإصلاح ما هدموه وخربوه، فأقام مسجد الإمام ومشهده، وبنى له منارة، وأعاد بناء المدرسة المجاورة له كما أمر بتعمير دار ضيافة وحمام وخان وأربعين إلى خمسين دكاناً حوله، ثم أمر بتعمير قلعة لحراسة الجامع والمدرسة والمنطقة، ووضع جنوداً بلغ عددهم نحو (١٥٠) ومعهم معدات حربية ومدافع لحماية المكان.

وكانت بعد ذلك إصلاحات أخرى على يد السلطان مراد خان الرابع عند دخوله بغداد عام: (١٠٤٨هـ)، حيث أخرج بقايا الفرس من المدينة وأعاد بناء الجامع والمشهد والمدرسة، واعتنى بالقبة التي فوق المشهد، وهي الموجودة



أثناء وجود الصفويين في بغداد تم هدم مشهد جامع الإمام أبي حنيفة ومدرسته أكثر من مرة

كذلك كانت هذه الأرض ميتة

فأنشدها جود العميد أبي سعد وقال ابن جبير في رحلته: «وبالرصافة مشهد حفيظ البنيان له قبة بيضاء سامية في الهواء فيه قبر الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه»
وجامع الإمام الأعظم أحد المساجد والمدارس التاريخية في مدينة بغداد، والمنطقة حول الجامع تدعى «الأعظمية» نسبة إليه رحمه الله وتقع في شمال بغداد على جهة الرصافة ويقابلها منطقة الكاظمية نسبة إلى موسى الكاظم رحمه الله تعالى ..

تاريخ المسجد وبنائه

مسجد الإمام الأعظم هو أحد المساجد التاريخية التي ذكرها ابن بطوطة أثناء زيارته لبغداد، وقد بني سنة: (٣٧٥هـ)، ثم بنيت عنده مدرسة كبيرة وكان التدريس فيها قاصراً على العلوم الشرعية فقط، وقال المؤرخون: لولا وجود مشهد الإمام أبي حنيفة

فحبسه إلى أن مات سنة: (١٥٠هـ) عن عمر يناهز السبعين، وكانت له جنازة حاشدة قل نظيرها، ودفن في مقبرة الخيزران في جانب الرصافة.

وكان رحمه الله قوي الحجة، قال الإمام مالك بن أنس (ت: ١٧٩هـ) رحمه الله تعالى، يصفه: «رأيت رجلاً لو كلمته في السارية أن يجعلها ذهباً لقام بحجته».

وكان رحمه الله آية من آيات

الله في الذكاء والحفظ والاستبطاء، قال عنه الإمام الشافعي (ت: ٢٠٤هـ) رحمه الله: «الناس عيال في الفقه على أبي حنيفة».

وأخذ عنه كثيرون ممن نبغوا في العلم عامة «والفقه خاصة» كمحمد بن الحسن الشيباني (ت: ١٨٩هـ)، وزفر بن الهذيل البصري (ت: ١٥٨هـ)، وأبويوسف يعقوب بن إبراهيم القاضي (ت: ١٨٢هـ)، والإمام الليث بن سعد (ت: ١٧٥هـ)، وآخرون.

ولم يكن عند قبره، رحمه الله، مسجد أول الأمر، حيث كان ما حوله مقبرة لعموم المسلمين، وفي سنة: (٣٧٩هـ) أقام أبوجعفر رواقاً على قبره، وفي سنة: (٤٥٩هـ) بنى الملك السلجوقي أبوسعيد محمد بن منصور الخوارزمي قبة على قبره، كما بنى عنده مدرسة كبيرة للحنفية.

وقال ابن الجوزي في «المنتظم»: «في هذه الأيام يعني سنة: (٤٥٩هـ) بنى أبوسعيد المستوفي الملقب شرف الملك مشهد أبي حنيفة، وعمل لقبره ملبناً وعقد القبة، وعمل المدرسة بإزائه وأنزلها الفقهاء، وعندما دخل أبوجعفر ابن البياضي إلى الزيارة قال ارتجالاً:

ألم تر أن العلم كان مضيقاً

فجمعه ذاك المغيب في اللحد



حالياً وأمر بتزيينها والاعتناء بمنظرها، وجاء معه إلى الأعظمية بعض من قبيلة العبيد، وسكنوا حول ضريح الإمام أبي حنيفة لحمايته.

وهكذا ظل المسجد يخضع لأعمال الصيانة الجزئية، والزيادات اللطيفة على يد الخلفاء العثمانيين، كإنشاء حديقة حول المسجد، وتزويق للمنارة الشامخة وتحليتها بالذهب.

وفي سنة: (١٢٨٨هـ)، أمر السلطان العثماني عبدالعزيز بإعادة بناء المسجد بشكل كامل ما عدا المنارة والقبة، وتمت هذه العملية على مدار خمس سنوات بكلفة مالية بلغت ثمانين ألف ليرة عثمانية ذهبية، واشتمل البناء الجديد على بيت الصلاة، ورواقين، وغرف من جهة الجنوب والشرق والشمال محيطة بصحن واسع، كما اشتملت على حديقة ومصلى صيفي وساحة كبيرة ومدرسة للقرآن الكريم.

وفي عام: (١٣٢٨هـ)، قام السلطان عبدالحميد بتجديد سور الجامع من جهة القبلة وبنى فيه غرفاً للطلاب والضيوف، وبنى دوراً ثانياً فوق الغرف الجنوبية.

وتعتبر التوسعة التي تمت في سنة: (١٣٩١هـ)، هي الأخيرة والتي أضافت إلى المسجد مساحة كبيرة تفوق مساحته الأصلية، حيث بلغت مساحته الحالية بما فيها من ساحات وصحن للمسجد أكثر من (١٥) ألف متر مربع من ضمنها كلية الإمام الأعظم الملحقة به.

وكان للجامع قبتان: إحدهما فوق المسجد، والأخرى فوق مرقد الإمام أبي حنيفة رحمه الله، ومنارة من الجهة الشرقية، فأضيفت إليه قبتان أخريان ومنارة من الجهة الغربية، كما جدد السياج الخارجي بالطابوق الأصفر

المطعم بالكاشي الأزرق المنقوش بزخارف متنوعة كتب في بعضها أسماء الله الحسنى.

المدرسة الأعظمية

المدرسة الأعظمية أو كلية الإمام الأعظم، هي مدرسة دينية تهتم بتدريس العلوم الشرعية الإسلامية، شُيِّدَتْ بجوار مشهد أبي حنيفة رحمه الله وُسِّمَتْ باسمه، وشييدها شرف الملك أبوسعيد محمد بن منصور الخوارزمي، مستوفي مملكة السلطان ملك شاه السلجوقي عام: (٤٥٩هـ).

بقيت مدرسة الإمام الأعظم حتى عام: (١٩١١م) المدرسة الوحيدة في الأعظمية إلى جانب بعض الكتاتيب لتعليم القراءة والكتابة والقرآن الكريم. وقد سميت المدرسة الأعظمية بعد عملية الترميم الأخيرة بـ «جامعة الإمام الأعظم» وذلك عندما طالب الشيخ العلامة نعمان بن أحمد الأعظمي (ت: ١٣٥٥هـ) السلطان العثماني بإنشاء كلية في الجامع، وكان للشيخ نعمان الفضل الأكبر في السعي لإنشائها وبنائها، وتعتبر من مآثره وجليل أعماله. ثم سماها «دار العلوم الدينية والعربية»، ثم «كلية الشريعة» ثم سميت مرة أخرى بـ

«كلية الإمام الأعظم». وكانت هناك بعض أعمال الترميم خلال العهد الملكي. وفي عام: (١٩٢٣م)، صدر الأمر بإعادة تسميتها بـ «الكلية الأعظمية» وجعلها تابعة لديوان وزارة الأوقاف وصارت أكبر مدرسة دينية في العراق.

وفي سنة: (١٩٥٨م) تم بناء برج أسطواناني بارتفاع (٢٥ م) وكُسيّ بالفسيفساء الأزرق والأبيض ليكون جاهزاً لاستقبال ساعة الأعظمية التي نُصبت عام: (١٩٦١م)، وبقيت تعمل بانتظام، وفي عام: (١٩٧٣م) قامت وزارة الأوقاف بكساء البرج بصفائح من الألمنيوم المضلع باللون الذهبي، وكانت هناك كذلك بعض أعمال الترميم خلال العهد الجمهوري، وكذلك خلال ثمانينيات القرن العشرين، وقد دُمِّر جزء من هذه المنارة والساعة والضريح وأجزاء أخرى داخل الجامع في أحداث الحرب الأخيرة في بغداد، وتعطلت به صلاة الجمعة عدة مرات، وكان الجامع ومرفقاته قد تعرض لأعمال تخريب من بعض ضعاف النفوس سنة: (٢٠٠٣م)، الأمر الذي دفع بعض الأهالي إلى حراسة المسجد والقيام على أعمال ترميمه التي لا تزال مستمرة حتى

الآن.

الجانب العلمي للمسجد ومدرسته

أدى جامع الإمام الأعظم منذ تأسيسه دوراً ثقافياً مهماً من خلال حلقات العلم التي انتشرت في جنباته، كما عُدَّت مدرسته نموذجاً رائداً يحتذى به، وكانت في أول الأمر على النمط القديم المتبع في حينه، وكانت موطن العلماء ومآب الساعين من طلاب العلم في شتى فنونه، حتى حمل التاريخ أسماء ثلة من مدرسيها وطلابها، وقد درس وتخرج بهذه المدرسة الجامعة في مختلف مراحل تطورها الحديث قوافل من العلماء شهد لهم بالفضل والسبق وكانوا خيرة قومهم علماً ومسلماً، وأصبحت النسبة إلى الجامعة الأعظمية وسام شرف يحملونه فيقال: فلان بن فلان «الأعظمي»، أي من خريجي كلية الإمام الأعظم، ومنهم هؤلاء:

الشيخ العلامة شجاع بن الحسن المتوفى عام: (٥٥٧هـ)، والشيخ العلامة مسعود بن الحسين القاضي المتوفى عام: (٥٧١هـ)، والعلامة عبداللطيف بن نصر الله الواسطي المتوفى عام: (٥٩٤هـ)، والشيخ ضياء الدين أبوالفضل أحمد بن مسعود التركستاني المتوفى عام: (٦١٠هـ)، والشيخ العلامة عبدالملك بن عبدالسلام اللمغاني المتوفى عام: (٦٤٨هـ)، والشيخ الإمام تاج الدين بن السباك البغدادي المتوفى عام: (٧٥٠هـ)، ونذكر منهم أيضاً:

١- الفقيه أبو معروف حسين أفندي بن الملا عبدالله بن الملا محمد الخصري (ت: ١٣٢٢هـ)، درس على علماء عصره في بلده، وكان ذكياً حاذقاً باللغة العربية، وعلوم التفسير والفقه، والحساب والفلك، والرياضيات، تولى التدريس في كلية الإمام الأعظم عام: (١٢٦٥هـ)، وله العديد من المؤلفات، منها: برهان الهدى، وهو كتاب تفسير للقرآن، ومناقب الإمام

ما زال جامع الإمام الأعظم ينشر العلم ويدرس علوم الدين إلى يومنا هذا

أبي حنيفة، وشرح تشریح الأفلاك، وغيرها كثير.. وقد تخرج عليه خلق كثير وعلماء أعلام منهم الشيخ نعمان الألوسي، وقد أجازهُ عام: (١٢٩٥هـ)، واعتزل التدريس أواخر حياته وحل محله في مجلسه ولده العلامة معروف أفندي البشدری.

٢- الشيخ العلامة أبويحيى نعمان بن أحمد بن إسماعيل البيدي الأعظمي (ت: ١٣٥٥هـ)، ولد في محلة الشيوخ بالأعظمية، وكان والده يرغب في أن يجعله في سلك العلماء، فمهد له السبل ووصله مع علماء عصره ومنهم العلامة الشيخ المحدث عبدالرزاق الجليبي الأعظمي، ثم انتسب إلى مدرسة الإمام أبي حنيفة، ودرس على الشيخ أحمد السمين الألباني، والشيخ سعيد النقشبندی، والشيخ عبدالوهاب النائب، وأجازهُ الشيخ حسن الخانبري، وكان قد عين معلماً في المدرسة الأعظمية عام: (١٣١٧هـ). ترك الكثير من المؤلفات المخطوطة والمطبوعة، وله تعليقات على هوامش الكتب المحفوظة في مكتبته، ومن مؤلفاته: «إرشاد الناشئين، المواعظ الدينية الصحيحة، شقائق النعمان في مواعظ رمضان، أغاريد الهزار في الأناشيد والأشعار» وغيرها كثير.

هذا، ولا زالت كلية الإمام الأعظم تُدرس مختلف العلوم الشرعية الإسلامية، وفق أصول المذهب الحنفي، كالفقه والعقيدة والدعوة والإرشاد، وتخرج العلماء وطلاب العلم، وهي تعتبر من أقدم المدارس العلمية في بغداد التي مازالت عاملة لحد الآن.

وثائق ومحفوظات

تعتبر مكتبة جامع الإمام الأعظم من أكبر المكتبات وأثرها، وتحتوي بالإضافة إلى الكم الهائل من الكتب العلمية في جميع الفنون على وثائق قيمة مهداة وموقوفة من قبل بعض المتبرعين تشتمل على:

١- مصحف كبير مذهب ومزخرف، أهده الحاج حافظ محمد أمين الرشيدي للسلطان محمود سنة: (١٢٣٦هـ).

٢- المصحف المشهور بـ «قرآن أنور باشا» بخط إسطنبولي محلى بالذهب، غلافه من الذهب مرصع بالألماس، أهدي خلال الحرب العالمية الأولى.

٣- مصحف كبير الحجم مزخرف ومذهب جميعه، كل صفحة سطران كبيران بخط كبير، كتب بماء الذهب، وبعضها بحروف أصغر، يقال لهذا النوع ياقوتي، أوقفه مصطفى آغا القابولي سنة: (١٠٧٣هـ).

٤- مصحف كبير وضع داخل صندوق كبير من الفضة المزخرفة والمطعم بالأحجار النفيسة، وهو هدية ملك الأفغان محمد ظاهر شاه سنة: (١٩٥٠م).

وهناك مصاحف كثيرة جداً بعضها مزخرف ومذهب في بدايته ونهايته والبعض الآخر بلا زخرفة أو تذهيب.

وهكذا ومما سبق يتبين لنا الدور الثقافي والاجتماعي والعلمي الرائد الذي أداه كل من جامع الإمام الأعظم ومدرسته، وذلك من خلال نشر العلم والمعرفة وتدريب علوم الدين، والعلوم الأخرى، وتخرج كوكبة من العلماء البارزين على مرّ العصور، وما زال جامع الإمام الأعظم ومدرسته العريقة يؤدیان هذا الدور الرائد حتى يومنا هذا.